المحاضرة الثالثة
علم الاجتماع والمنهج العلمي

النقاط الأساسية:
- المعرفة.
- أنواع المعرفة.
- مفهوم العلم وأهدافه الرئيسية.
- إمكانية الدراسة العلمية للظواهر الاجتماعية.

المعرفة:

يمكن تعريف المعرفة بأنها عبارة عن مجموعة المعاني والتصورات والآراء والمعتقدات والحقائق التي تتكون لدى الإنسان نتيجة لمحاولاته المتكررة لفهم الظواهر المختلفة المحيطة به.

ويكتسب الإنسان المعرفة بعدة طرق مختلفة. منها :
- ما يكتسبه الإنسان بطرق موضوعية عن طريق استخدام المنهج أو الطريقة العلمية
- ما يكتسبه الإنسان بطرق شخصية أو ذاتية تعتمد على تصور الفرد نفسه للمجتمع.

أنواع المعرفة:

١- المعرفة الحسية:

وهي المعرفة التي تقتصر على مجرد ملاحظة الظواهر ملاحظة بسيطة تقف عند مستوى الإدراك الحسي دون أن تتجه إلى إيجاد الصلات أو تسعى إلى إدراك العلاقات البسيطة بين الظواهر.

٢- المعرفة الفلسفية:

وهي نوع من المعرفة يقوم فيها الإنسان بتفسير ظواهر الكون بقوى فوق طبيعية. فوراء الأمور الواقعية المكتسبة بالملاحظة مسائل أهم ومطالب أبعد تعالج بالعقل وحده. وتتناول الفلسفة هذه المسائل بالدراسة والبحث، ولا تقتصر على العالم الطبيعي وحده بل ترتقي إلى العالم الميتافيزيقي. ولا يهتم البحث الفلسفي بالجزئيات، وإنما يهتم بالمبادئ الكلية، كما يحاول تفسير الأشياء بالرجوع إلى عللها ومبادئها الأولى.

٣- المعرفة العلمية:

وهي تلك المعرفة التي يكتسبها الإنسان باستخدام المنهج أو الطريقة العلمية التي يمكن تلخيصها بأنها عملية لاكتساب أو تنمية المعرفة بطريقة منظمة أو منسقة تعتمد على تحديد المشكلة أو مسألة الدراسة، وصياغة الفروض أو الأفكار التي تدور حول حل المشكلة، ثم اختبار هذه الفروض، وأخيرا تحليل نتائج الدراسة واستخلاص التعميمات.

وتقوم الطريقة العلمية على سلسلة من الإجراءات تتضمن أولا الاعتماد على الملاحظة الموضوعية، أي القدرة على رؤية العالم بعيدا عن التأثر بخبراتنا المباشرة. كما تتضمن ضرورة استخدام القياس الدقيق لالتزام الموضوعية في البحث والحصول على نتائج صادقة وثابتة. وأخيرا الالتزام بالكشف الكامل عن نتائج البحث وجعلها في متناول الآخرين.

مفهوم العلم وأهدافه الرئيسية:
من الشائع تعريف العلم بأنه تراكم المعرفة المنسقة. وقد يعرف أيضا بأنه بناء منسق من المعرفة توضح كيف تعمل القوانين العامة.
ومن العلماء من يعرف العلم بأنه الطرق المنسقة المنطقية التي يمكن عن طريقها الحصول على المعرفة. كما يعرف العلم بأنه الطريقة المنطقية والمنسقة التي يمكن من خلالها ملاحظة الحقائق وتصنيفها بهدف صياغة نظريات يمكن اختبارها والتأكد من مدى صحتها.

ويوافق كثير من العلماء الاجتماعيين على أن العلم هو الدراسة الموضوعية المنظمة للظواهر الواقعية وما يترتب على ذلك من بناء للمعرفة.
ويتضح من تحليل التعريفات السابقة أن مفهوم العلم ليس مرادفا لمفهوم المعرفة، نظرا لأن المعرفة العلمية تعد أحد أنواع المعارف التي تتكون منها ثقافة المجتمع. كما يتضح منها أن المعرفة العلمية هي نوع من المعرفة المنطقية المنظمة أو المنسقة التي يمكن الحصول عليها عن طريق استخدام المنهج أو الطريقة العلمية.

وتتكون المعرفة العلمية من جانبين: أحدهما جانب حسي نعتمد فيه على الخبرة الحسية التي تزودنا بها أعضاء الحس. أما الجانب الآخر، فهو جانب عقلي أو منطقي يسمى بالمعرفة العقلية أو المجردة ونعتمد فيه على العقل. ولا يوجد أي انفصال بين هذين الجانبين للمعرفة. وهما يمثلان حلقتين متصلتين في سلسلة المعرفة العلمية، ومن خلال تفاعلهما تتقدم وتتطور المعرفة.

غير مهم

كما أن للمعرفة العلمية خصائص أو معايير معينة تجعلها تختلف عن غيرها من أنواع المعارف غير العلمية وهي التجريد والعمومية والواقعية والحياد الأخلاقي والموضوعية.
ولابد للمعرفة العلمية أن تتوافر فيها هذه الخصائص أو المعايير العلمية السابقة حتى يمكنها اكتشاف الحقيقة وإقامة الدليل عليها ومساعدتنا على فهم العالم الذي نعيش فيه وبذلك يمكن تحقيق أهداف العلم الرئيسية وهي: الوصف، والشرح أو التفسير، والتنبؤ، والضبط أو التحكم.

ويتضح من الأهداف السابقة التي يسعى العلم إلى تحقيقها، أن العلم لا يقف عند مرحلة الوصف، بل يتعدى ذلك إلى محاولة الفهم والتفسير، أي محاولة كشف العلاقات التي تقوم بين الظواهر الاجتماعية المختلفة. ويؤدي الفهم والتفسير إلى تحقيق هدف آخر يتمثل في القدرة على التنبؤ، أي التأكد من انطباق المبادئ أو القواعد العامة التي يتم التوصل إليها عن طريق البحث العلمي على حالات أخرى في أوضاع مختلفة عن تلك التي سبق استقراؤها منها. وتزداد القدرة على الضبط أو التحكم كلما زادت القدرة على التنبؤ القائم على أساس الفهم.

إمكانية الدراسة العلمية للظواهر الاجتماعية:
عارض فريق من العلماء مبدأ تطبيق المنهج العلمي في الظواهر الاجتماعية، وكانوا يرون أن دراسة الظواهر الاجتماعية بإتباع الأساليب العلمية أمر لا يمكن تحقيقه لما بين ظواهر العلوم الطبيعية والاجتماعية من اختلافات جوهرية. وتتركز دعاوي هؤلاء المعارضين حول عدد من المسائل :
١- تعقد المواقف الاجتماعية
٢-استحالة إجراء التجارب في الدراسات الاجتماعية ٣- تعذر الوصول إلى قوانين اجتماعية
٤- بعد الظواهر الاجتماعية عن الموضوعية ٥- عدم دقة المقاييس الاجتماعية.

ويرى بعض هؤلاء المعترضين أن الباحث الاجتماعي يجد نفسه جزءا من الظاهرة التي يدرسها، والتي قد يجد نفسه مهتما بها اهتماما شخصيا. مما يجعل دراسة الظواهر الاجتماعية تتأثر بقيم الباحث واتجاهاته أو العقائد السائدة في مجتمعه. مما يؤدي إلى عدم نجاح العلوم الاجتماعية في إعطائنا نتائج تماثل تلك التي قدمتها العلوم الطبيعية.

وفي مقابل هؤلاء العلماء الذين يشككون في إمكانية الدراسة العلمية للظواهر الاجتماعية، نجد فريقا آخر من العلماء الذين يرون أن علم الاجتماع عليه أن يحتذي نمط العلوم الطبيعية. ومن ثم يجب على علم الاجتماع أن يطور قدرته على اكتشاف القوانين والتنبؤ بالظواهر، ووضع هذه القوانين في صيغة نظريات تماثل نظريات العلوم الطبيعية.

ويدلل بعض العلماء على علمية علم الاجتماع وإمكانية استخدام المنهج العلمي في دراسة الظواهر الاجتماعية بعدة أدلة منها تزايد الاعتماد على الأسلوب الكمي والرياضيات في البحث الاجتماعي، مما يجعل نتائجه صادقة وموضوعية.

ومما زاد من تدعيم الالتجاء إلى الرياضيات والأسلوب الكمي تعقد الحياة في المجتمع الحديث وتعقد المواقف الاجتماعية، مما جعل من الصعب الاعتماد على طريقة الملاحظة فقط في دراسة الظواهر الاجتماعية. ومن ثم كان لابد من الالتجاء إلى لغة الكم والاعتماد على الإحصاءات في شتى أشكالها.

وأخيرا يجدر بنا أن نشير إلى أنه على الرغم من هذه الاعتراضات التي أثارها بعض العلماء حول صعوبة استخدام المنهج العلمي في دراسة الظواهر الاجتماعية إلا أن ذلك ليس مستحيلا، ولا يشكك في علمية علم الاجتماع وإمكانية الدراسة العلمية للمجتمع. وإذا كانت هناك بعض الظواهر الاجتماعية التي يصعب دراستها حاليا باستخدام الأساليب العلمية، فقد يمكن دراستها في المستقبل بفضل الجهود المتواصلة لعلماء الاجتماع ونتيجة ابتكارهم لمناهج وأدوات حديثة أكثر دقة تتفق مع طبيعة الظواهر الاجتماعية.